ملف العدد :

الفتوحات الاسلامية في آسيا الوسطى

د/ محمد السباعي محمد السباعي
عضو هيئة التدريس السابق
بالجامعة المصرية للثقافة الإسلامية بكازاخستان

مقدمة

تعتبر بلاد ما وراء النهر وتركستان إسمان مترادفان للتعبير عن منطقة واحدة من حيث التاريخ والجغرافيا في تاريخنا الاسلامي، فكلمة تركستان مكونة من مقطعين؛ الأول ترك والثاني ستان وهي لاحقة في اللغة الفارسية للدلالة على المكان، يفهم من التسمية أن الذي كان يقطن هذه المنطقة هي القبائل التركية وان الذي كان يسيطر عليها هم الفرس من حيث الحضارة والثقافة، وفي ضوء ما سبق فهي موطن الأتراك ومنبتهم، واستعملت كلمة تركستان اول مرة من قبل الفرس الساسانيين للبلاد التابعة لدولة (كوك توركلر)

أما مصطلح بلاد ما وراء النهر فالذي أطلقه هم العرب المسلمون عندما كانوا يطاردون ملك الفرس يزدجرد، والذي وصل الى نهر جيحون (أمو دريا)، فالمنطقة التي بعد هذا النهرهي بلاد ما وراء نهر، وقد ذكر ياقوت الحموي (أن تركستان اسم جامع لجميع بلاد الترك، وحدهم الصين والتبت والخزلج والكيماك)

ولهذا سيتم تناول الفتوحات الإسلامية في آسيا الوسطى في عهد الخلفاء الراشيدين، وعهد الدولة الأموية، وعهد الدولة العباسية، وعلى يد السامانيين، وعهد السلاجقة، حكم القبيلة الذهبية، عهد القوقاز الذهبي، عهد الدولة العمانية فيما يلى:

١ - الفتوحات الاسلامية في عهد الخلفاء الراشدين

كانت بداية الفتح الإسلامي لبلاد ما وراء النهر (وسط آسيا والقوقاز) في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب(١٣ – ٢٣هـ)؛ حيث ارتبطت الفتوحات القائد العربي

المسلم الأحنف بن قيس التميمي، الذي طارد الملك الفارسي "يزدجرد" شرقًا حتى نهر جيحون، الحدِّ الغربي لبلاد ما وراء النهر، وقد عاون خاقانُ الترك يزدجردَ، وكوَّنَا حلفًا لمواجهة المسلمين، وتمكَّنت قوات يزدجردَ من استعادة مدينة بَلْخ عاصمة إقليم خراسان، لكن الأحنف بن قيس لم يتأثَّر بذلك، وقَتَل ثلاثة من فرسان الترك، وأثَّر هذا الأمر فيهم فعادوا أدراجهم.

وفي عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان (٢٣ – ٣٥هـ) دارت معركة بين الأحنف بن قيس من جهة وبين الأتراك الذين كانوا بطخارستان على حدود جيحون من ناحية أخرى، وقد انتهت المعركة بانتصار الأحنف وتوقيعه صلحًا مع أهل طخارستان. وقد أعقب ذلك أن أرسل الأحنفُ قائدَه الأقرعَ بن حابس؛ ليتتبَّع الأتراك المتقهقرين إلى جبال الجوزجان، وانتصر عليهم، وتمَّ له فتح الجوزجان، ويبدو أن هذه الانتصارات السريعة حفَّزت الأحنف فوصل بقوَّاته إلى خُوَارِزم إحدى بلاد ما وراء النهر، ثم عاد إلى بلخ قاعدة خراسان، وقد توقَّفت الفتوحات الإسلاميَّة بعد ذلك بسبب الصراعات الداخليَّة.

٢ - الفتوحات الاسلامية في عهد الدولة الأُمويَّة

في عام ٥٤هـ غزا عبد الله بن زياد خراسان، وعبر نهر جيحون إلى بخارى، وفي عام ٥٦هـ وَلِيَ خراسان سعيد بن عثمان بن العاص فغزا سمرقند، وفي عهد يزيد بن معاوية تولَّى مسلم بن زياد ابن أبيه إمارة خراسان؛ فتجدد الصراع مع الأتراك واتَّحدت جيوش بخارى والصُّغْد وقوَّات تركيَّة من التركستان، لكن الجيوش الإسلاميَّة حقَّقت انتصارًا كبيرًا على الأتراك، وغنموا الغنائم الكثيرة، فاضطرت الخاتون صاحبة بخارى أن تدفع أموالاً كثيرة، لتجنّب المسلمين الظافرين من التوغُّل في أراضيها.

كل هذه المحاولات كانت تمهيد للفتح الإسلامي في عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦ – ٩٦هـ)، والذي حدث على يد القائد قتيبةُ بن مسلم الباهلي، فقد تولَّى أمر خراسان في عام ٨٨هـ، وقد أتم هذه الفتوحات على أربع مراحل؛ في المرحلة الأولى (٨٣ – ٨٤هـ) عَبَر نهر جيحون، واستعاد منطقة طخارستان. في المرحلة الثانية

(٨٧ – ٨٩هـ)، استعاد بخارى. وفي المرحلة الثالثة (٩٠ – ٩٣هـ) استطاع أن يرفع راية الإسلام في حوض نهر جيحون، وقد توجَّهت فتوحاته في المرحلة الرابعة من جهاده (٩٤ – ٩٦هـ) إلى ولايات سيحون، ثم دانت له ولايات أوزباكستان وطاجيكستان، وغيرهما من مناطق وسط آسيا، ونجح في نشر الدعوة الإسلاميَّة، وثبَّت دعائم الإسلام هناك، وبنى أوَّل مسجد في بخارى عام ٩٤هـ، وواصل مسيرته حتى فتح مدينة كَاشْغَر، بالقرب من حدود الصين.

وبعد قتل قتيبة بن مسلم على يَدِ أحد جنوده، تولَّى القيادة مِن بَعْده أخوه صالح بن مسلم، والذي أكمل فتح باقي منطقة فَرْغَانَة.

وبعد وفاة الوليد بن عبد الملك عام ٩٦هـ، وتولية سليمان بن عبد الملك الخلافة تقلَّصت عمليَّات الفتح الإسلامي، بل وقامت مجموعة من الثورات ضدَّ الدولة الإسلاميَّة في هذه المناطق، تمثلت في طموحات الأمراء الأتراك الذين أبقاهم الأُمويون يحكمون بلادهم تحت السيادة الإسلاميَّة، لكنَّ الدولة الأمويَّة لم تتهاون في مواجهة تلك الثورات وقمعها، وبدأ كثير من أمراء هذه البلاد يدخلون في دين الله، ولاسيما في عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز، وبعده بدأوا يتألَّفون مع المسلمين العرب، بل ويُدافعون عن الإسلام بحماسة ضدَّ الأتراك الشرقيين.

وظلَّت الدولة الأمويَّة والأتراك الشرقيون في صراع يتبادلون النصر والهزيمة، حتى تغلَّبت كفَّة الدولة الأمويَّة على يَدِ أسد بن عبد الله القَسْرِيِّ (١١٧-١٣١ هـ)، ونصر بن سيار (١٢١ – ١٢٩هـ).

والذي ينبغي الإشارة هنا هو أن تَعامُل الفاتحين المسلمين مع أهل هذه البلاد كان السبب الرئيسي في دخولهم الإسلام عن قناعة تامَّة، وليس أدلُّ على ذلك من ترحيب أهل بلخ بالقائد المظفَّر قتيبة بن مسلم الباهلي، وأيضًا دخول عدد كبير من أهل بخارى في الإسلام عن إيمان وعقيدة بعد أن انتصر على ملكتهم (خاتون)، وكان قد أشار إليها بعد أن عقد معها الصلح بأن المسلمين لم يأتوا لاحتلال "بُخَارَى"، وإنما أَتَوْا لنشر شريعة الإسلام، وتبليغ دين الله تعالى.

٣ - الفتوحات الاسلامية في عهد الدولة العباسيَّة

بعد سقوط الدولة الأمويَّة وقيام الدولة العباسيَّة عام ١٣٢هـ، واجه العباسيُّون خطراً جديداً، هو الخطر الصيني؛ فقد رتَّب الصينيُّون للسيطرة لا على الأتراك الشرقيين فحسب، وإنما على بلاد ما وراء النهر ذاتها.

والتقى الجيشان العباسيُّ والصينيُّ في معركة طالاس عام (١٣٤هـ = ٧٥٢م)، انتصر فيها العباسيُّون، وكان هذا الانتصار من أعظم الانتصارات في وسط آسيا.

وكان أثر الهزيمة على الصينيِّين شديداً، إلى درجة أنهم تقاعسوا عن نصرة أمير أُشْرُوسَنَة عندما استغاث بهم ضدَّ المسلمين، وكان هذا يعني أن العباسيين قد نجحوا في إبعاد الصينيين عن المعركة، وبات على الأتراك الشرقيِّين أن يواجهوا المسلمين معتمدين على أنفسهم، وهو ما كان فوق طاقتهم؛ لأن العباسيين أَوْلَوا المنطقة عناية كبيرة، وواصلوا جهودهم إلى أن زال خطر الأتراك الشرقيين، فثبَّتَت الخلافة العباسيَّة سطوتها على هذه المناطق، وبدأ كثير من الأتراك في الدخول في دين الله أفواجاً.

وعمل العباسيُّون كما فعل الأُمويون في استخدم الأتراكَ في الإدارة، بل في الجيش نفسه، وهو ما شجَّع الأتراك على اعتناق الإسلام، وكان من ذلك أن أنشأ الفَضْل بن يحيى البرمكي فرقة كبيرة من الأتراك الغربيين بلغ عددها خمسين ألف مقاتل، أرسل إلى بغداد وحدها عشرين ألف مقاتل، أسماهم بالفرقة الخُوَارِزْمِيَّة، وذلك في عهد هارون الرشيد (١٧٠-١٩٣هـ)، وقد استنَّ الخليفة المأمون (١٩٨-٢١٨هـ) سُنَّةً جديدة، حيث دعا كثيراً من زعماء الأتراك إلى الدخول في خدمته في بغداد، ومَنَحَهُم العطايا، وألحق كثيراً من فرسانهم في الحرس الخاص بالخليفة.

وفي عهد الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ) زاد الإسلام تمكُّناً في بلاد ما وراء النهر، حتى إن الأتراك الغربيين أنفسهم أصبحوا جند الجهاد في سبيل الله، والدفاع عن الإسلام ونَشْرِه بين الأتراك الشرقيين؛ وفى هذا يقول البَلاذُري: "والمعتصم بالله جُلُّ شهود عسكره من جند أهل ما وراء النهر، من الصُّغْد والفراغنة وأهل الشاش وغيرهم، وحضر ملوكهم ببابه، وغلب الإسلام على ما هناك، وصار أهل تلك البلاد

يغزون مَن وراءَهم مِن الترك، ففتح مواضع لم يَصِلْ إليها أحد من قبله".

وهكذا استطاع العباسيُّون تحقيق نجاحات هائلة، حتى إن الثقافة الإسلاميَّة توطَّدت بين أهل تلك البلاد، وقد بدأ أهلها يتعلَّمون اللغة العربيَّة، وحفظ القرآن الكريم، وإن كانت المراكز الثقافيَّة لم تبرُز في هذه البلاد، وخاصَّة في بخارى وسمرقند، إلا في عهد الطاهريين (٢٠٥ – ٢٥٩هـ = ٨٢٠ – ٨٧٣م)، الذين اتَّخذوا نيسابور في خراسان قاعدة لهم، وكان لظهورهم دفعة قويَّة للإسلام في بلاد ما وراء النهر.

بعد ذلك ضعفت الدولة العباسية فقامت الدويلات الإسلامية التي ظهرت بدور مهم جدا في نشر الإسلام في وسط آسيا وبلاد القوقاز.

٤ - انتشار الإسلام على يد السامانيين

كان للسامانيين (٢٦١ – ٣٨٩هـ = ٨٧٤ – ٩٩٩م) دور كبير في انتشار الإسلام في هذه البلاد؛ إذ كانت عاصمتهم بُخَارى، لذلك كان من الطبيعي أن يكون اهتمامهم بما وراء النهر أعظم؛ لأنها مقرُّ حكمهم ومركز دولتهم، ففي عهدهم وضحت ثمار الجهود التي بذلها المسلمون في رفع مكانة الإسلام هناك طيلة قرنين من الزمان تقريبًا، وقد ثبت الإسلام في قلوب الأتراك الغربيين، بل أخذ ينتشر بين الأتراك الشرقيين.

٥ - انتشار الإسلام في عهد السلاجقة

وفي عهد الأتراك السلاجقة في القرن الخامس الهجري زادت الجهود لنشر الإسلام في مناطق أخرى من بلاد تركستان الغربيَّة وما حولها، وهم الذين أوقعوا هزيمة فادحة بالروم في معركة ملاذكرد (٤٦٤هـ = ١٠٧١م).

٦ - حكم القبيلة الذهبيَّة

أدَّى ظهور المغول في البلاد العربيَّة والإسلاميَّة، وقيامهم بتدمير العديد من المعالم والمدن الإسلاميَّة المهمَّة إلى إضعاف الإسلام في مناطق القوقاز، وارتداد كثير من شعوب هذه المناطق عن الإسلام، بَيْدَ أن التحولُّ الكبير لصالح الإسلام بدأ عندما تولَّى بركة خان بن جوجي ابن أخي جنكيزخان حكم القبيلة الذهبيَّة عام (٦٥٤

هـ=١٢٥٦م)، وقد استمرَّ حكمه إلى سنة (٦٧٥ هـ=١٢٧٦م) تَحَوَّل في أثنائه معظم أفراد القبيلة الذهبيَّة إلى الإسلام، وقد امتدَّ حكمهم من تركستان حتى موسكو، التي حكموها أيضًا.

٧- عهد القوقاز الذهبي

وكان العهد الذهبي للقوقاز من حيث ثبات العقيدة ورسوخها في عهد تيمورلنك (٧٢٦ – ٨٠٧هـ)، الذي احتلَّ أَذْرَبِيجَان والداغستان؛ فقد اهتمَّ تيمورلنك بالقضاء على كل ما هو غير إسلامي في أَذْرَبِيجَان وداغستان، حتى لقد أصبح الإسلام هو الدين الوحيد لسكان وسط الداغستان، وهم شعب "اللاك"، الذين أصبحوا بدورهم شعلة قويَّة في نشر الإسلام في المناطق المجاورة لهم، وقد اتخذوا مدينة "غازي – قمق" عاصمة لهم ومركزًا إسلاميًّا رئيسيًّا في داغستان.

كما يُذكر لتيمورلنك أنه وجَّه ضربة عنيفة لأكبر قوَّة مسيحيَّة في وسط وشمال القوقاز، وهي مملكة شعب "الآلان" وهم أجداد شعب الأوستين الذين يعيشون اليوم في أوسيتيا الشماليَّة والجنوبيَّة؛ حتى دخلت معظم شعوب المنطقة في الإسلام، وخاصَّة بعد ظهور مجموعة من القوى في منطقة القوقاز وما حولها في القرن العاشر الهجري مثل: تركيا، وخانية القرم، اللَّتان كان لهما أكبر الأثر في تحوُّل الأبخاز وشراكسة الغرب والشرق من المسيحيَّة إلى الإسلام.

٨- بلاد القوقاز في عهد الدولة العثمانية

ولما استطاعت إمارة آل عثمان (٦٩٩ – ١٣٤٢هـ) التوسُّع غربًا في اتِّجاه الأراضي البيزنطيَّة راحت القوى الصليبيَّة تُحَرِّض القوى التركمانيَّة الأخرى على مناوئة النفوذ العثماني في الأناضول، حيث قَادَ هذه الحركات أمير قرمان علاء الدين، لِذَا توجَّه العثمانيون لأوَّل مرَّة تجاه الشرق، وبدأوا في السيطرة على الإمارات هناك تدريجيًّا، حتى خضعت معظمها للسيادة العثمانيَّة، ويمكن أن نقسِّم ممالك آسيا الوسطى والقوقاز من خلال عَلاقتها بالخلافة العثمانيَّة إلى قسمين: الأوَّل: ممالك خضعت للنفوذ العثماني المباشر، وهي مثل مناطق القرم، وقفقاسيا، وغربي القوقاز. والثاني: ممالك

لم تخضع للنفوذ السياسي للخلافة العثمانيَّة، وإنما خضعت لنفوذها الديني، وتخوض مع الدولة صراعًا مشتركًا ضدَّ الشيعة في إيران، والأطماع الروسيَّة في الشمال، وهذه المناطق هي: بخارى وخُوارِزم وطشقند وشرق القوقاز.

هذا وقد كان ثَمَّة عداء واضح بين الدولة الصفويَّة والخلافة العثمانيَّة، وهو ما ولَّد مجموعة من المعارك الحربيَّة بين الطرفين، انتصر فيها العثمانيُّون كثيرًا، وبسبب هذه العداوة لم تخضع دول وسط آسيا بالصورة السياسيَّة المفهومة لسلطان العثمانيين؛ لذا استقلَّت كثير من هذه الممالك بذاتها.

وخلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر الهجريَّيْن كثَّف الأتراك العثمانيُّون جهودهم لنشر الإسلام في الأجزاء الشماليَّة والغربيَّة والوسطى من القوقاز، وبشكل خاصٍّ بين شراكسة البحر الأسود، وهم الأديجيون، وبين قبائل القرتشاي، والبلكار، والأباظة، والأبخاز.

وقام الأتراك عام (١٠٣٦هـ= ١٦٢٧م) بغزو الأجزاء الجنوبيَّة الغربيَّة من جورجيا، واعتنق قسم من سكانها الدين الإسلامي، وهم شعب أدجاريا الحالي وعاصمتهم باطومي على ساحل البحر الأسود، وقد وطَّد الإسلام أركانه في هذه البلاد خلال القرن الثالث عشر الهجري، وقد انتشرت المذاهب الصوفيَّة في الفترة، ومنها النقشبنديَّة.

وفي عام (١١٢٩هـ = ١٧١٧م) فكَّر سلطان الأتراك وخان القرم "دولت كراي" ومِن بَعْدِه "خاز كراي" في نشر الإسلام بين أهل هذه المنطقة؛ فجلب العلماء من الأستانة، كما بنى المساجد، وجعل من "أنابا" عاصمة لولايته على ثغر البحر الأسود، ومركزًا رئيسيًّا للإسلام، وقد انتشر الإسلام من "أنابا" في عموم شمالي القوقاز، بما في ذلك الشيشان، وهكذا أصبح الشراكسة عمومًا مسلمِين ومتمسِّكين به أشدَّ التمسُّك في كل مناحي الحياة.

هذا وقد أدَّى نشاط حركة الفتح العثماني في شرق أوروبا – حتى سقوط بيزنطة وضم الخلافة العثمانيَّة للأملاك البيزنطيَّة في البحر الأسود – إلى دخول الإسلام منطقة

القرم وقفقاسيا، وخوض صراع طويل على أملاك العائلة الذهبيَّة في قازان واسترخان مع إمارة موسكو، وانتهى الأمر بإلحاق الخلافة العثمانيَّة للقرم تحت حمايتها، وضمِّ موسكو لقازان واسترخان.

ولكن لاضطراب السياسة العثمانيَّة على إثْر وفاة السلطان سليمان القانوني، وظهور إمارة موسكو كقوَّة في منطقة أوكرانيا شمالي البحر الأسود، وسَعْيِ أمير هذه الإمارة للحصول على لقب القيصريَّة من بابا روما، ووراثة الإمبراطوريَّة البيزنطيَّة، وحرص بابا روما على دفع روسيا القيصريَّة لحمل راية الصليب ضدَّ العالم الإسلامي – كان لكلٍّ هذا أثره العظيم في توجيه القيصر الروسيِّ بصرَه صوب الممالك الإسلاميَّة في الجنوب.

وفي هذا الصدد تمكَّنت روسيا القيصريَّة من قطع اتِّصالات ممالك آسيا الوسطى ببقيَّة العالم الإسلامي، وبخاصَّة الخلافة العثمانيَّة، إثر احتلالها استرخان، وتعاونت مع الدولة الشيعيَّة في إيران، التي راحت تتعاون مع العالم الصليبي لمواجهة المسلمين من أهل السنة في بلاد ما وراء النهر وفي الممالك العثمانيَّة، كما ورَّطت روسيا القيصريَّة الخلافةَ العثمانيَّة في حروب خارجيَّة بالتنسيق مع إمبراطوريَّة النمسا.